الشاعر عبد الفتاح مصطفى
الكلمة الخالدة



إعداد وتقديم
محيي الدين إبراهيم

الشاعر عبد الفتاح مصطفى
الكلمة الخالدة

إعداد وتقديم

محيي الدين إبراهيم

مصر

إهداء:

إلى الأرواح التي تتوهج بالحب قبل العقل.

إلى العاشقين الذين جعلوا من الكلمة محرابًا ومن النغمة صلاة،

إلى السالكين في دروب النور الذين رأوا في الفن طريقًا إلى الحق،

إلى من علّمونا أن الجمال ذكر، وأن الشعر سبيل إلى الفناء في الله،

إلى كل قلب ما زال يؤمن أن الكلمة أمانة وأنها خالدة بخلود الروح.

محيي الدين إبراهيم

مقدمة:

الكلمة بين العشق والمسؤولية:

لماذا عبد الفتاح مصطفى؟ لأن الكلمة عنده لم تكن مجرد وسيلة للتعبير، بل كانت رسالة ومسؤولية، أشبه بجوهرة نادرة يقطعها صائغ بارع، فيضيء بريقها في لحظة يحتاج إليها المجتمع والوجدان. عبد الفتاح مصطفى لم يكن شاعرًا يهوى تزيين العبارات أو مطاردة الشهرة؛ بل كان عاشقًا للكلمة في أعمق معانيها، وجواهرجيًا دؤوبًا يفتش عن أنقى ما في اللغة ليمنحه للناس في صورة شعرية تغذي الروح قبل أن تُطرب الأذن.

حين نقرأ مسيرته ندرك أن الكلمة عنده لم تكن هواية، بل تكليفًا. عاش زمنًا قاسيًا، فيه الاحتلال، وثورة يوليو 1952، وحروب مصر ضد الاستعمار، ونصر أكتوبر 1973، وصولًا إلى اغتيال السادات 1981. ظروف تاريخية مشحونة بالتحولات الكبرى، تُنتج إما الانكسار واللاشيء، أو تُفرز مبدعًا عظيمًا يلتقط الخيوط المتشابكة للواقع ويعيد صياغتها في أناشيد وأغانٍ خالدة. اختار عبد الفتاح مصطفى الطريق الأصعب: طريق الكلمة المسؤولة التي تتحمل عبء الأمة، وتُداوي جراحها، وتُشعل في القلوب شعلة الأمل.

لقد تبنى قضايا كبرى في شعره: الوطن، الحرية، العدالة، الدين، والإنسان البسيط. كتب عن الفلاح الكادح في الأربعينيات وهو لا يزال فتىً صغيرًا، فكان شاهدًا على أن الفن لا ينفصل عن المجتمع. كتب للأمة في لحظات انتصارها وانكسارها، فكانت كلماته تُذاع مع بدء إذاعة "صوت العرب"، وتُرفع مع أذان النصر في أكتوبر. كتب للأطفال واليتامى في رمضان، لأن تجربة يتمه الشخصي جعلته أقدر على التعبير عن وجعهم وأحلامهم. كتب للحب العاطفي، لكنه أضفى عليه دائمًا بعدًا صوفيًا يجعل الغناء العاطفي ضربًا من العشق الإلهي.

ولم يكتفِ بالشعر الغنائي، بل أدرك أن الكلمة مسؤولية درامية وثقافية أيضًا، فكتب للسينما والتلفزيون والإذاعة نصوصًا جسّدت القيم الإسلامية والتاريخية، مثل "رابعة العدوية"، و"فجر الإسلام"، و"محمد رسول الله". في كل عمل كان يترك بصمة فكرية وروحية، تؤكد أن الفن يمكن أن يكون مدرسة للأخلاق بقدر ما هو مدرسة للجمال.

إن عبد الفتاح مصطفى هو نموذج للمبدع الذي التقط اللحظة التاريخية بكل قسوتها وجمالها، وامتلك من صدق التجربة ما جعله لا يكتب من فراغ، بل يكتب من قلب المجتمع، ومن قلبه هو الذي لم يعرف إلا الصدق. من هنا تأتي أهمية الحديث عنه: لأنه شاعر حمل الكلمة كأمانة، وعاش بها ولها، وأثبت أن الشعر يمكن أن يكون سلاحًا وجسرًا ومحرابًا في آن واحد.

ميلاد في الجمالية:

بين أصول أزهرية وبذور الإبداع 1924–1940

وُلد عبد الفتاح مصطفى الغمراوي في الثالث والعشرين من يناير عام 1924، في حي الجمالية بالقاهرة؛ ذلك الحي الذي يجمع بين عبق التاريخ وروح المكان، حيث تختلط الأصوات: بائعو الحلوى والمنادون في الأسواق، أصوات المقرئين من زوايا المساجد، والصلوات التي تعانق مآذن الأزهر الشريف. لم يكن حي الجمالية مجرد مكان للنشأة، بل كان بمثابة التربة الأولى التي غُرس فيها وعيه الروحي واللغوي. فمن بين تلك الأزقة الضيقة والمشربيات المضيئة بزينة رمضان، ولد شاعر لم يكن قدره أن يعيش كأي طفل، بل أن يكون لسانًا لزمن مضطرب ومبدعًا يلتقط تفاصيل الروح المصرية ويحوّلها إلى شعر خالص.

كان والده الشيخ مصطفى الغمراوي عالمًا أزهريًا مرموقًا، ورحيله المبكر ترك فراغًا هائلًا في حياة الفتى الصغير. هذا اليُتم المبكر لم يكن مجرد مأساة، بل كان بذرة من بذور التجربة الصوفية التي تشرّبها عبد الفتاح

مصطفى فيما بعد؛ فاليُتم يولد حساسية خاصة تجاه المعنى، وإحساسًا بعمق الفقد، وقدرة على تحويل الألم إلى إبداع. تولت الأم تربية الابن الوحيد، وكانت امرأة ذات حزم وإيمان، دفعت بابنها إلى العلم والثقافة، وأدخلته عالم الكتب والأدب منذ طفولته. ولعل هذا التكوين المزدوج—اليُتم الذي يفتح جراح القلب، والأم التي تغذيه بإيمان ومعرفة—قد صاغ شخصية الشاعر في أعماقها الأولى.

بيئة الأزهر والطفولة الروحية:

لا يمكن الحديث عن ميلاد عبد الفتاح مصطفى من دون استحضار تأثير الأزهر الشريف. فحي الجمالية كان يجاور الأزهر، وكان الهواء نفسه مشبعًا بالقراءات القرآنية، والجدالات الفقهية، والروحانية التي تخرج من حلقات الذكر. الطفل عبد الفتاح، وهو يستمع إلى تلك الأصوات، كان يتشرب مناخًا يربط بين الدين واللغة، بين الكلمة والإيمان. ومن هنا جاءت قدرته فيما بعد على أن يكتب نصًا عاطفيًا يبدو كأنه غزل دنيوي، فإذا أعدت قراءته وجدت أنه مناجاة صوفية لله.

هذا المناخ الروحي لم يُبعده عن الحياة اليومية، بل منحه حسًا مزدوجًا: أن يرى الماورائي في اليومي، وأن يكتشف الجمال في العادي. وهو ما جعل أغنيته الأولى عن الفلاح عام 1939، التي كتبها في الرابعة عشرة، ليست مجرد كلامًا عن كادح يزرع أرضه، بل كانت إشادة بقداسة العمل وبالعلاقة بين الإنسان والتراب، بين العرق والبركة.

أثر اليتيم في تكوين شاعر:

اليتيم في الثقافة الصوفية يُنظر إليه على أنه أقرب إلى سرّ الله في الأرض، لأن قلبه يظل مفتوحًا دومًا لاستقبال العزاء من السماء. وفي حالة عبد الفتاح مصطفى، كان يتمه هو المفتاح الأول لفهم ميله الدائم إلى التعاطف مع الضعفاء، وكتابته عن الأطفال واليتامى في رمضان. لم يكن يستحضر

صورهم من الخارج، بل كان يكتب من عمق التجربة الشخصية. في كلمات مثل: "بتحلّف يتيمك ما تلمح دموعه" من أغنية "والله لسه بدري يا شهر الصيام"، نشعر أن الشاعر لم يكتب من خيال، بل من ذاكرة وجدانية تعود إلى طفولته. فالطفل الذي فقد أباه مبكرًا ظل حاضرًا في الرجل الذي صار شاعرًا.

التعليم كمدخل إلى الحرية:

نشأ عبد الفتاح في مدارس القاهرة الحكومية، ثم واصل طريقه حتى التحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة. لكن قبل هذه المرحلة، كان الطفل الذي يقرأ ويكتب منذ نعومة أظفاره قد بدأ يكوّن نفسه بوصفه عاشقًا للكلمة. قصيدته الأولى التي نشرت في الصحف عام 1947 لم تكن حدثًا عابرًا، بل كانت إعلانًا عن نضج مبكر. أن يكتب مراهق قصيدة طويلة بعنوان "عروس النيل" تُعرض على محمد عبد الوهاب ليلحنها، فهذا يعني أن الموهبة لم تكن وليدة صدفة، بل وليدة صقل وتعليم ووعي بالمسؤولية.

التعليم هنا لم يكن مجرد شهادات؛ بل كان جزءًا من مسار فكري. فاختياره لدراسة الحقوق يعكس اهتمامه بالعدالة والحق، وهو ما نلمسه في شعره الوطني لاحقًا. أما دراسته للشريعة الإسلامية بعد ذلك، فقد كانت تأكيدًا لعمق التكوين الروحي الذي لازم مسيرته كلها.

بين الطفولة والقدر:

الفترة من 1924 إلى 1940 هي مرحلة التكوين، لكنها أيضًا فترة تموج فيها مصر بالتحولات. نشأ عبد الفتاح في ظل الاحتلال البريطاني، ورأى كيف كان المجتمع المصري يتأرجح بين الفقر والحلم بالحرية. كل ذلك جعله شاعرًا يعيش بوعي تاريخي منذ بداياته. لم يكن طفلًا منفصلًا عن زمنه، بل كان جزءًا من روح أمة تبحث عن ذاتها. من هنا نفهم لماذا حمل شعره فيما بعد كل تلك النزعة الوطنية والدينية والصوفية في آن واحد. لقد كان

انعكاسًا حيًا لتلك النشأة: يتيم في بيت أزهري، في حي شعبي عريق، في بلد يئن تحت الاستعمار وينهض بثورة روحية وفكرية.

إن ميلاد عبد الفتاح مصطفى في الجمالية لم يكن مجرد حدث بيولوجي؛ بل كان ميلاد شاعر ستظل كلماته شاهدة على أن الألم يمكن أن يُحوّل إلى جمال، وأن البيئة الشعبية حين تتشبع بالروح الدينية والفكرية يمكن أن تُنجب مبدعًا لا يتكرر.

من قصائد الفتى اليافع إلى أروقة الإذاعة:

الانطلاقة الأولى 1940–1952

مع بداية الأربعينيات، بدأ الفتى عبد الفتاح مصطفى يشق طريقه نحو عالم الكلمة بخطى ثابتة. كان في السادسة عشرة من عمره حين كتب أولى أغنياته عن الفلاح عام 1939: "اِحرِت واعزق واتعب واعرَق، مين أحسن من الكادح بإيديه..."، أغنية بدت للوهلة الأولى بسيطة في مفرداتها، لكنها كشفت عن وعي اجتماعي مبكر، وعن شاعر يدرك أن الكلمة لا قيمة لها إن لم تكن مرآة لوجع الناس وأحلامهم. لم يكن مجرد تمرين على الكتابة، بل كان انحيازًا مبكرًا للإنسان البسيط، ذلك الفلاح الذي يمثل عصب مصر، وكأن الفتى يعاهد نفسه أن يكون صوتًا لهم.

في عام 1947، وهو لا يزال طالبًا بالمرحلة الثانوية، نشر إحدى قصائده الفصيحة الطويلة في الصحف بعنوان "عروس النيل". هذه القصيدة لم تكن مجرد حدث عابر في حياة شاب هاوٍ، بل كانت بوابة عبوره إلى الإذاعة المصرية. أحد المسؤولين قرأها وأُعجب بها، واقترح عليه أن يرسلها إلى الإذاعة. هناك، وقعت بين أيدي الكبار، لتصل في النهاية إلى موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب، الذي لحنها لتصبح أول تعاون فني بين عبد الفتاح مصطفى وأحد أعمدة الموسيقى العربية. وهكذا، خرج الشاعر من

دائرة الهواية الضيقة إلى فضاء أرحب، حيث تُذاع كلماته ويستمع إليها الجمهور.

بين الدراسة والموهبة:

لم يكن الطريق ممهَّدًا. ففي الوقت الذي كان يُنشر له شعر في الصحف وتُغنّى كلماته، كان عبد الفتاح مصطفى طالبًا في كلية الحقوق بجامعة القاهرة. التوفيق بين صرامة القانون ورهافة الشعر لم يكن أمرًا سهلاً، لكنه كان علامة على شخصية استثنائية. تخرج عام 1952، في السنة نفسها التي اندلعت فيها ثورة يوليو، ثم حصل على دبلوم في الشريعة الإسلامية عام 1954. كان الجمع بين الحقوق والشريعة تأكيدًا على أن الرجل لا يرى الكلمة إلا في إطار المسؤولية، مسؤولية الحق والعدل والصدق.

وفي هذه المرحلة أيضًا بدأ عمله في المجال القانوني، حيث عُيّن رئيسًا لمأمورية الشهر العقاري بالقاهرة والجيزة. هذه الوظيفة، التي تبدو بعيدة عن الشعر، كانت في الحقيقة تجربة إنسانية منحته رؤية أوسع للمجتمع. كان يلتقي يوميًا بمواطنين من مختلف الطبقات، يطلعون على تفاصيل حياتهم وقضاياهم، وهو ما زاد إحساسه بالمسؤولية تجاه الناس. وربما لهذا السبب، لم يكن شعره بعيدًا عن واقع الحياة المصرية اليومية.

الانطلاقة الإذاعية:

لم تقتصر مساهمات عبد الفتاح مصطفى على قصيدة "عروس النيل". فقد بدأ منذ الأربعينيات يكتب للإذاعة المصرية الصور الغنائية التي كانت تمثل أحد أهم أشكال الفن في تلك الحقبة. من أبرزها: "عوف الأصيل"، و"عذراء الربيع"، و"راوية"، وكلها أعمال شارك فيها كبار المطربين مثل عباس البليدي، محمد قنديل، شريفة فاضل، ونجاة الصغيرة. في هذه الأعمال، أظهر قدرته على المزج بين الحكاية الشعبية واللغة الشعرية، بين البساطة والعمق.

وكان تعاونه مع الملحن أحمد صدقي علامة فارقة. لحن له أغنية "الصباح النادي"، وتوالت بعدها الأعمال التي شكلت ذاكرة المستمع المصري. تلك الفترة شهدت بروز عبد الفتاح مصطفى كاسم بارز في الإذاعة، شاعراً يجمع بين الغنائية والرسالة، وبين التراث والتجديد.

نحو وعي جديد بالكلمة:

بين 1940 و1952، كان عبد الفتاح مصطفى قد وضع أساس مشروعه الشعري: الكلمة المسؤولة. لم يكن يكتب ليملأ فراغًا فنيًا، بل ليضيف إلى وعي الناس. الكلمة عنده لم تكن لهوًا، بل التزامًا. كتب عن الفلاح لأنه يؤمن بقدسية العمل. كتب "عروس النيل" لأنه كان يرى في النيل رمز الحياة. كتب الصور الغنائية لأنه كان يريد أن يُدخل الشعر إلى كل بيت عبر الإذاعة.

وهكذا، مع بلوغه الثامنة والعشرين، كان قد عبر من طور الفتى اليافع الذي يكتب في صمت، إلى شاعر معترف به في الوسط الثقافي والفني، مؤسسًا لمرحلة جديدة ستبلغ ذروتها مع ثورة يوليو وأم كلثوم وبليغ حمدي فيما بعد.

صوت الثورة وروح الوطن:

الشعر الوطني من يوليو إلى أكتوبر 1952–1973

حين قامت ثورة يوليو 1952، كانت مصر على موعد مع تحول جذري في تاريخها. لم يكن عبد الفتاح مصطفى بعيدًا عن هذا التحول، بل كان في قلبه، شاعرًا شابًا يحمل رصيدًا من التجربة والوعي والمسؤولية. لقد التقت موهبته بالكلمة مع لحظة تاريخية كانت تبحث عن أصوات جديدة تعبر عن آمال الأمة. منذ تلك اللحظة، أصبح شعره الوطني جزءًا من الذاكرة الجماعية للمصريين والعرب.

من "أمجاد يا عرب" إلى صوت العرب:

في 4 يوليو 1953، انطلقت إذاعة "صوت العرب" بقيادة أحمد سعيد، ومع انطلاقتها دوّى في الأثير صوت كارم محمود مرددًا كلمات عبد الفتاح مصطفى: "أمجاد يا عرب أمجاد". لم تكن مجرد أغنية، بل كانت بمثابة نشيد رسمي للوحدة القومية. ارتبط صوت العرب بالأغنية، وارتبطت الأغنية باسم الشاعر الذي كتبها، لتصبح جزءًا من وجدان مرحلة بكاملها. كلمات الأغنية جسدت حلم الوحدة العربية في خمسينيات القرن الماضي، حلمًا كان يرفرف في قلوب الملايين، وكان الشعر هنا سلاحًا لا يقل عن البندقية.

الشعر في زمن القومية والتحرر:

لم يكن عبد الفتاح مصطفى شاعرًا للخطابة الجوفاء أو الشعارات الفارغة. لقد كتب وهو يعيش الأحداث، يراقبها بعين المثقف الذي يدرك أبعادها. في سنوات الخمسينيات والستينيات، كتب أغنيات تحولت إلى شعارات على لسان الناس، منها "كل العرب حيجوا هنا يوم ما نعادي" التي غناها محمد قنديل، وأغنيات أخرى جسدت نبرة التحدي في وجه العدوان الثلاثي عام 1956. كانت الكلمة عنده وقودًا للشعب، تبعث الحماسة وتُثبّت العزيمة.

من النكسة إلى النهوض:

جاءت هزيمة يونيو 1967 لتكشف المحنة. هنا لم يتوارَ عبد الفتاح مصطفى كما فعل بعض الشعراء، بل واصل رسالته، لكن بروح أقرب إلى الصوفية، تحمل مزيجًا من الحزن والإيمان بالقدرة على النهوض. كلماته في تلك المرحلة كانت تواسي وتذكّر بالثبات، وتبث الأمل في الغد. لم يكن شاعر انكسار، بل شاعر بعث وتجدد. وهذا ما جعل شعره الوطني يتجاوز اللحظة ليصبح ذا قيمة دائمة.

لحظة أكتوبر 1973: الكلمة تتحول إلى صرخة نصر:

في السادس من أكتوبر 1973، حين أعلن الرئيس أنور السادات عبور القوات المسلحة قناة السويس، كان عبد الفتاح مصطفى في قلب القاهرة يتابع اللحظة التاريخية. لم تمر سوى ساعتين حتى كان قد كتب قصيدته الشهيرة "صدق وعده"، التي لحنها بليغ حمدي وغناها عبد الحليم حافظ. الأغنية لم تكن مجرد عمل فني؛ كانت وثيقة شعرية للنصر، اختزلت المعنى الديني والسياسي في عبارة واحدة: أن النصر وعد إلهي تحقق بالإيمان والعمل. لقد جسد عبد الفتاح مصطفى في هذه الأغنية جوهر مشروعه الشعري: الكلمة المسؤولة التي تتحول إلى جزء من مصير الأمة.

بين الميكروفون والجماهير:

في هذه المرحلة (1952–1973)، أصبح عبد الفتاح مصطفى أحد أبرز الأصوات الشعرية التي حملت على عاتقها مهمة التعبير عن الجماهير. لم يكن شاعر سلطة، بل شاعر وطن. وقف إلى جانب القضايا الكبرى، وكتب كلمات لم تُفرض عليه، بل خرجت من قلبه ومن معايشته العميقة للناس. لم يكن في صوته صخب الدعاية، بل حرارة الإيمان. وهكذا، أصبحت كلماته تُذاع مع صوت العرب في كل بيت عربي، وتُردد في المدارس والميادين، لتصبح جزءًا من لغة الشعب نفسه.

شاعر لحظة ومسؤولية:

إذا كانت ثورة يوليو قد أنجبت أصواتًا كبرى في السياسة والفكر، فإن عبد الفتاح مصطفى كان صوتها الشعري الغنائي. لقد أدرك أن الثورة ليست مجرد حدث سياسي، بل هي وجدان يتشكل، وأن الكلمة هنا لا بد أن تكون جسرًا بين الحلم والواقع. وفي لحظة أكتوبر 1973، تَحقّق الحلم الذي طال انتظاره، وكانت كلماته أول من بارك النصر، لتظل شاهدة على أن

الشاعر الذي حمل هموم الأمة في هزائمها، كان حاضرًا أيضًا ليكتب نشيدها في لحظة الانتصار.

أم كلثوم وعبد الفتاح مصطفى:

صداقة الروح والكلمة 1957–1967

حين نقترب من منتصف الخمسينيات، نجد أن عبد الفتاح مصطفى كان قد رسخ اسمه شاعرًا وطنيًا في الإذاعة المصرية، وبدأت كلماته تُغنّى على ألسنة كبار المطربين. غير أن اللقاء مع كوكب الشرق أم كلثوم مثّل نقطة انعطاف كبرى في مسيرته، ليس فقط من حيث الشهرة، بل من حيث القيمة الفنية والإنسانية التي أضافتها تلك التجربة. في حضرة أم كلثوم، لم يكن الشاعر مجرد كاتب كلمات، بل أصبح صديقًا لروحها الفنية، ومشاركًا في صناعة تراث خالد.

البدايات مع الست:

بدأ التعاون بين عبد الفتاح مصطفى وأم كلثوم عام 1957، حين قدم لها قصيدة دينية بعنوان "حديث الروح"، التي لحنها رياض السنباطي. هذه القصيدة كانت ترجمةً لقصيدة للشاعر محمد إقبال، لكنها في صياغة عبد الفتاح مصطفى تحولت إلى نص صوفي خالص، يحمل ملامح تجربته الشخصية. أم كلثوم، التي كانت دائمًا تبحث عن الكلمة الصادقة، وجدت في شعره ما يطابق رؤيتها: أن الغناء ليس للتسلية، بل للتعبير عن أعمق ما في الإنسان. كان هذا اللقاء الأول بمثابة اختبار نجح فيه الشاعر بامتياز، لتُفتح أمامه أبواب عالم أم كلثوم.

صداقة إنسانية قبل أن تكون فنية:

ما يميز علاقة عبد الفتاح مصطفى بأم كلثوم أنها لم تكن علاقة مصلحة أو مجرد تعاون فني. بل وُصفت بأنها صداقة حقيقية، قوامها الاحترام

المتبادل والصدق. كان قريبًا منها إلى حد أنه أصبح أحد أصدقائها المقربين، يشاركها جلساتها الخاصة، ويتبادل معها النقاشات حول الفن والمجتمع. هذه الصلة الإنسانية انعكست على الكلمة التي كتبها لها، إذ كانت تخرج من قلب يعرف من يخاطب، ويكتب لها لا باعتبارها "الست" فقط، بل باعتبارها صديقة تشاركه الرؤية والهم.

الأغنية الدينية كجسر بين الكلمة والروح:

مع أم كلثوم، وجد عبد الفتاح مصطفى مساحة للتعبير عن الجانب الصوفي الذي طالما ميز شعره. كتب لها مجموعة من القصائد الدينية التي أصبحت علامات في مسيرتها، مثل "إلى عرفات الله" التي غنتها عام 1965 في موسم الحج، و"الثلاثية المقدسة" التي لحنها رياض السنباطي. في هذه الأعمال، استطاع أن يصوغ التجربة الروحية في لغة شعرية تجمع بين البساطة والعمق، بين وضوح العبارة وغموض المعنى الصوفي. أم كلثوم، بصوتها الذي يشبه تلاوة خشوع، أضفت على تلك الكلمات حياة جديدة، فصارت الأغنية الدينية حدثًا فنيًا بقدر ما هي حدث روحي.

الثورة والغناء الوطني:

لم يقتصر تعاونهما على الأغاني الدينية، بل امتد إلى الأغاني الوطنية. أم كلثوم التي حملت على عاتقها مهمة التعبير عن الأمة في لحظاتها الكبرى، وجدت في عبد الفتاح مصطفى صوتًا قادرًا على صياغة الكلمة الوطنية بصدق وبُعد روحي. لقد شاركها في التعبير عن آمال الأمة وتطلعاتها، فكان جزءًا من فريق الكبار الذين شكلوا وجه الغناء الوطني في الستينيات.

صداقة تبقى رغم الفواصل:

قد يظن البعض أن علاقة شاعر بأم كلثوم تنتهي بانتهاء الأغنية، لكن عبد الفتاح مصطفى ظل صديقًا لها حتى وفاتها عام 1975. كان يزورها ويستمع إلى ملاحظاتها، وكانت ترى فيه شاعرًا مخلصًا وصديقًا وفيًا. هذه العلاقة

لم تكن شائعة في الوسط الفني، حيث كثيرًا ما تفسد المصالح العلاقات. لكنها هنا كانت مختلفة: علاقة قائمة على الثقة والوفاء، وهذا ما منح شعره الموجه لها صدقًا مضاعفًا.

أثر العلاقة على مسيرته:

يمكن القول إن تجربة عبد الفتاح مصطفى مع أم كلثوم منحته بعدًا جديدًا في مسيرته. فقد فتحت له أفق العالمية عبر صوتها، وأكدت مكانته كشاعر قادر على كتابة الكلمة الدينية والوطنية بنفس القوة التي يكتب بها العاطفية. كما أن الصلة الإنسانية التي جمعته بها جعلته أكثر وعيًا بدور الكلمة، إذ رأى كيف يمكن أن تتحول قصيدة إلى حدث قومي أو روحي حين تغنيها كوكب الشرق. وهكذا، كانت سنوات 1957–1967 عقدًا ذهبيًا في مسيرته، رسخت اسمه في ذاكرة الأمة، وأثبتت أن الكلمة حين تصدر عن قلب صادق تجد دائمًا من يحملها إلى الخلود.

حين تغني الصوفية:

الابتهالات مع النقشبندي وبليغ حمدي 1972–1980

إذا كان عبد الفتاح مصطفى قد أرسى دعائم الكلمة الوطنية والعاطفية عبر عقود، فإن ذروة مشروعه الروحي والفني تجلت في تلك اللحظة النادرة التي التقت فيها كلماته بصوت الشيخ سيد النقشبندي وألحان بليغ حمدي. لم يكن هذا التعاون مجرد تجربة غنائية دينية، بل كان فتحًا جديدًا في تاريخ الأغنية الروحية المصرية والعربية، حيث امتزج الشعر الصوفي بالموسيقى الحديثة والصوت الملائكي في توليفة لم يعرفها الناس من قبل.

البداية مع النقشبندي:

كان الشيخ سيد النقشبندي صوتًا استثنائيًا في تاريخ الابتهال الديني، بصوته الجهوري الذي يحمل نبرة خشوع وصدق لا يتكرر. وعندما التقى شعر عبد الفتاح مصطفى بكلماته الشفافة وصوته الخاشع، كان الناتج حالة روحية جديدة. كلمات مثل: "مولاي إني ببابك قد بسطت يدي" لم تكن مجرد نظم شعري، بل كانت مناجاة صوفية صافية، تنقل المستمع من عالم الأرض إلى سماوات الروح.

عبد الفتاح مصطفى لم يكتب للنقشبندي كلمات جافة أو تعليمية، بل كتب له لغة قادرة على أن تحاور السماء. كانت الكلمة عنده تسعى لتكون مفتاحًا للقلب، تُذكّر الناس بأن الفن يمكن أن يكون عبادة، وأن الغناء يمكن أن يتحول إلى صلاة.

بليغ حمدي والحداثة الموسيقية:

دخل بليغ حمدي على خط التجربة ليضيف إليها عنصرًا ثالثًا بالغ الأهمية. كان بليغ موسيقيًا مجددًا بطبعه، يلتقط النغمة الشعبية ويصوغها بلغة عصرية. مع النقشبندي وعبد الفتاح مصطفى، صنع بليغ ألحانًا تحمل حرارة العصر وتظل وفية لجوهر الروحانية. ولعل أعظم ما أبدعوه معًا هو الابتهال الشهير "مولاي إني ببابك"، الذي أصبح أيقونة للغناء الروحي في مصر والعالم الإسلامي.

هذا الابتهال، بكلماته وألحانه وأداء النقشبندي، جمع بين ثلاثة عناصر متباعدة ظاهريًا: الشعر الصوفي، الصوت الديني التقليدي، والموسيقى الحديثة. لكن التوليفة نجحت لأنها انطلقت من صدق روحي أصيل. لقد كان الثلاثي يدرك أن ما يقدمونه ليس مجرد فن، بل حالة وجدانية تتجاوز الزمان والمكان.

روح رمضان وصوت الإذاعة:

في السبعينيات، أصبحت ابتهالات النقشبندي من كلمات عبد الفتاح مصطفى جزءًا من طقس رمضان في مصر والعالم العربي. عند الغروب، حين يرفع الأذان وتجلس الأسر حول موائد الإفطار، كان صوت النقشبندي يملأ الأجواء، بكلمات تحمل توقيع عبد الفتاح مصطفى. لم تكن مجرد أغانٍ دينية، بل كانت تجربة روحية يعيشها الناس جماعيًا. هذا الحضور جعل الشاعر جزءًا من تفاصيل الحياة اليومية، لا يسمع الناس كلماته في المناسبات الكبرى فقط، بل في كل يوم من أيام الشهر الكريم.

الصوفية كجسر بين الدين والفن:

اللافت أن عبد الفتاح مصطفى لم يكتب الابتهالات بروح واعظ أو فقيه، بل بروح صوفي عاشق. كان يرى أن الغناء يمكن أن يكون وسيلة لذكر الله، وأن الكلمة حين تُكتب بصدق تتحول إلى عبادة. لذلك، جاءت نصوصه للنقشبندي محمّلة بروح التصوف: التذلل على الأبواب، التضرع، العشق الإلهي. لكنها كانت مكتوبة بلغة بسيطة يفهمها الجميع. هذا التوازن بين العمق والوضوح هو سر خلودها.

أثر التجربة في تاريخ الغناء المصري:

يمكن القول إن تجربة عبد الفتاح مصطفى مع النقشبندي وبليغ حمدي أعادت تعريف العلاقة بين الغناء والدين. قبلها، كان الغناء الديني محصورًا في التواشيح التقليدية. لكن مع هذا الثلاثي، صار الغناء الديني فنًا شعبيًا جماهيريًا، يسمعه الملايين، ويتأثرون به في حياتهم اليومية. لقد ارتقى بالشعر الديني إلى مستوى الفن العصري، من دون أن يفقد جوهره الروحي.

مناجاة لا تموت:

حتى بعد رحيل النقشبندي عام 1976، ظل عبد الفتاح مصطفى يكتب الابتهالات وكأن صوته ما زال حاضرًا. وكلمات مثل "إلهي لا تعذبني فإني

مقر بالذي قد كان مني" بقيت تتردد في الإذاعة والقلوب. هذه النصوص لم تمت لأنها كتبت بصدق صوفي نادر، ولأنها لم تخاطب عصرًا بعينه، بل خاطبت الإنسان في جوهره الأبدي.

في سنوات السبعينيات والثمانينيات، أصبح اسم عبد الفتاح مصطفى مرادفًا للأغنية الدينية الحديثة. كان الناس يرونه شاعرًا أعاد الروح إلى الكلمة الدينية، وجعلها تُغنّى لا كواجب تقليدي، بل كاحتفال بالحب الإلهي. وهكذا، من خلال النقشبندي وبليغ، أثبت أن الكلمة حين تصدر من قلب صادق قادرة على أن تصنع ثورة في الفن كما تصنع ثورة في الروح.

الدراما الدينية والتاريخية:

الشعر مرآة الشاشة 1960–1984

لم يكن عبد الفتاح مصطفى شاعرًا يكتفي بالأغنية الوطنية أو العاطفية أو الابتهال الديني، بل امتد عطاؤه إلى الدراما الدينية والتاريخية، ليؤكد أن الكلمة يمكن أن تكون وسيلة للتثقيف بقدر ما هي وسيلة للتطريب. منذ ستينيات القرن العشرين وحتى رحيله عام 1984، أصبح اسمه مرتبطًا بالمسلسلات والسهرات الدينية التي شكلت جزءًا مهمًا من وعي الجمهور، لا سيما في شهر رمضان، حيث كانت الأسر المصرية والعربية تلتف حول المذياع أو التلفزيون لتستمع إلى أعماله.

الشعر والدراما: لقاء الكلمة بالصورة:

في زمن لم يكن التلفزيون قد رسّخ وجوده بعد، كانت الإذاعة هي الوسيلة الأولى للتثقيف والتسلية. هنا ظهر دور عبد الفتاح مصطفى في كتابة نصوص غنائية للدراما الدينية. كانت كلماته تُستخدم كمقدمات غنائية للأعمال، أو كتعليق شعري داخل الحلقات، ليمنحها بعدًا فنيًا وروحيًا مضاعفًا. لم يكن مجرد شاعر يُكلف بكتابة نص، بل كان مؤلفًا يعي قيمة

أن تكون الكلمة جزءًا من نسيج العمل الدرامي، تعزز معناه وتفتح للمشاهد آفاقًا أعمق.

من "رابعة العدوية" إلى "محمد رسول الله"

من أبرز الأعمال التي ارتبطت باسمه مسلسل "رابعة العدوية"، الذي تناول سيرة المتصوفة الشهيرة، وقدّم عبر كلماته صورة للزهد والعشق الإلهي. كما كتب لمسلسل "محمد رسول الله"، الذي يعد من أهم الأعمال الدينية في تاريخ التلفزيون المصري، حيث كان الشعر فيه جسرًا بين السرد التاريخي والوجدان الشعبي. لم يكن الهدف من هذه الأعمال مجرد الحكاية، بل غرس قيم الإسلام الأولى: الرحمة، العدل، الزهد، والجهاد بمعناه الروحي والإنساني.

كذلك شارك في أعمال أخرى مثل "فجر الإسلام" و*"لا إله إلا الله"* و*"القضاء في الإسلام"*. في كل هذه الأعمال، كان شعره يضفي على الدراما بعدًا وجدانيًا يجعل القصة التاريخية أقرب إلى القلب، ويجعل المشاهد يعيش التجربة لا كمعلومة جافة، بل كحالة روحية.

رمضان والشاعر:

ارتبط اسم عبد الفتاح مصطفى بشهر رمضان بشكل خاص. لم يكن الأمر قاصرًا على ابتهالات النقشبندي، بل تجاوزه إلى الدراما التي كانت تُعرض خلال الشهر. كان رمضان بالنسبة له موسمًا يجتمع فيه الناس على الكلمة، وتصبح الكلمة مسؤولة أكثر من أي وقت آخر. لهذا كتب بحرص شديد، مدركًا أن ما يقوله سيؤثر في وعي ملايين من المستمعين والمشاهدين. وكان نجاح هذه الأعمال سببًا في أن يُلقب بـ "شاعر الدراما الدينية"، وهو لقب لم يسبقه إليه أحد.

فلسفة الكلمة في الدراما:

أدرك عبد الفتاح مصطفى أن الدراما وسيلة تعليمية بقدر ما هي فنية. لذلك، حرص في نصوصه على تبسيط المفاهيم الدينية دون تفريط، وعلى صياغة الحكمة بلغة شعرية يسهل ترديدها وحفظها. كان يكتب من وحي ثقافته الأزهرية ومن تجربته الشخصية في اليتم والبحث عن المعنى. ولذلك، جاءت نصوصه محملة بروح صوفية رقيقة، لكنها مغلفة بلغة يسيرة يفهمها الجمهور. بهذا التوازن، استطاع أن يخاطب المثقف والبسيط معًا، العالم والأمي، دون أن يشعر أي منهما بالغربة.

أثره في الأجيال:

لقد شكّلت أعمال عبد الفتاح مصطفى مدرسة في الكتابة للدراما الدينية. من بعده، حاول كثيرون تقليده، لكنهم لم يبلغوا صدقه. كان سر نجاحه أنه لم ينظر إلى الكتابة كتكليف، بل كمشاركة وجدانية. لم يكتب عن رابعة العدوية كرمز تاريخي فحسب، بل كقديسة عاشقة لله تشبه أمه وأخته وكل امرأة مصرية مؤمنة. لم يكتب عن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) كتاريخ، بل كقلب حيٍّ يسكن وجدان الأمة. لذلك، ظلت كلماته حاضرة في ذاكرة الجمهور حتى بعد مرور عقود.

إرث الدراما الشعرية:

من خلال هذه الأعمال، أثبت عبد الفتاح مصطفى أن الشعر يمكن أن يكون قلب الدراما، وأن الكلمة ليست مجرد زخرفة، بل جزء من البناء الفني والروحي للعمل. لقد أسس تقليدًا سيظل علامة فارقة: أن الأغنية أو المقدمة الشعرية يمكن أن تحمل رسالة العمل كله. ولولا صدق التجربة وعمق الرؤية، ما كان لهذا الإرث أن يستمر حتى اليوم.

وهكذا، فإن سنواته الممتدة من 1960 حتى 1984 لم تكن مجرد مرحلة إنتاجية، بل كانت تأكيدًا لرسالته الكبرى: أن الكلمة مسؤولة، وأنها يمكن

أن تصنع وعياً جماعيًا إذا ما كُتبت بصدق ووعي. وفي الدراما الدينية، تجلى هذا الدور بأوضح صوره، ليبقى عبد الفتاح مصطفى أحد أبرز من جسّدوا التقاء الكلمة بالشاشة، والشعر بالتاريخ.

الإنسان خلف الكلمة:

صداقات، روح مرحة، ووفاء حتى الرحيل 1984

وراء الكلمات التي خلدت عبد الفتاح مصطفى، كان هناك إنسان من لحم ودم، بروح مرحة وطيبة قلب أسرت من حوله. لم يكن شاعرًا متجهمًا يعيش في برج عاجي، بل كان قريبًا من الناس، يحب الأنس والرفقة، ويمد الجسور مع زملائه وأصدقائه. هذه السمة الإنسانية كانت أحد أسرار حضوره، وجعلت كلماته تبدو وكأنها صدى لروح المجتمع لا لصوت فرد معزول.

الصديق الوفي:

كان عبد الفتاح مصطفى صديقًا مقربًا لعدد من رموز الفن والغناء، مثل أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ، شادية، محمد قنديل، ونجاة الصغيرة. لم تكن صداقاته سطحية، بل ممتدة إلى عمق المشاركة الوجدانية والفنية. كان وفيًا لمن حوله، لا يعرف الغدر أو الانتهازية التي طبعت كثيرًا من العلاقات في الوسط الفني. من جلساته الخاصة خرجت أغنيات كبرى، ومن صداقاته وُلدت مساحات من المحبة والوفاء.

روح الدعابة والمرح:

على الرغم من خلفيته الأزهرية وتجربته الروحية العميقة، كان عبد الفتاح مصطفى إنسانًا مرحًا، يملك خفة ظل تميّزه. كان يجلس مع أصدقائه في المقاهي أو البيوت، يروي الحكايات والنكات، ويملأ المكان بضحكاته. هذه

الروح المرحة لم تكن على حساب جديته في الكلمة، بل كانت جزءًا من إنسانيته المتكاملة: شاعر يعرف أن الكلمة مسؤولية، لكنه يعرف أيضًا أن الحياة لا تُطاق بلا بهجة.

بين القانون والفن:

ظل عبد الفتاح مصطفى حتى وفاته يجمع بين عمله القانوني ومسيرته الشعرية. عمله رئيسًا للشهر العقاري ومستشارًا قانونيًا لم يكن مجرد وظيفة، بل كان نافذة على حياة الناس اليومية، يُشاهد فيها قضاياهم وصراعاتهم، وهو ما انعكس على كتاباته التي حملت دومًا حسًا اجتماعيًا. كان يرى أن الشاعر ليس كائنًا منعزلاً عن المجتمع، بل شاهدًا على تفاصيله.

الرحيل في صمت:

في الثالث عشر من يوليو عام 1984، رحل عبد الفتاح مصطفى عن عمر ناهز الستين عامًا. رحل بهدوء، كما عاش، تاركًا وراءه رصيدًا ضخمًا من الأعمال الوطنية والدينية والعاطفية والدرامية. لم يُثر ضجيجًا برحيله، لكنه ترك صدى لا ينقطع. فقد ظلّت كلماته تُذاع في الإذاعة والتلفزيون، تُغنّى في المسارح، وتُتلى في الابتهالات، وكأنها حياة أخرى تستمر بعد غياب الجسد.

الأثر الباقي:

ما يميز عبد الفتاح مصطفى أنه لم يُختزل في جانب واحد: فهو شاعر الوطن، وشاعر الحب، وشاعر الابتهال، وشاعر الدراما الدينية، وفي كل جانب ترك بصمة لا تُمحى. لكنه فوق ذلك، كان إنسانًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، عرف قيمة الصداقة والوفاء، وأثبت أن الكلمة الصادقة تظل باقية لأنها تنبع من إنسان صادق.

إن رحيله لم يكن نهاية، بل بداية حضور آخر، حضور شعري وروحي لا يزول. كل من عرفه حمل عنه ذكرى، وكل من سمع كلماته حمل عنه أثرًا، وبذلك بقي حيًا في القلوب، شاعرًا وإنسانًا، نورًا وإن رحل الجسد.

عبد الفتاح مصطفى باقٍ في الكلمة:

إننا حين نتأمل سيرة عبد الفتاح مصطفى من الميلاد في الجمالية حتى الرحيل عام 1984، ندرك أننا لا نتحدث عن شاعر فقط، بل عن روح كاملة صاغت نفسها بالكلمة، وأهدتها للناس كزادٍ في الطريق. لقد كان شاعرًا عاشقًا للكلمة، لا يكتبها إلا بعد أن يمتحنها بوجدانه، فينحتها كما ينحت الصائغ جوهرته، ثم يضعها في قلوب الناس فتضيء.

رحل الجسد، لكن الكلمات لم ترحل. ما زالت أغنياته الوطنية تُبث في لحظات الفخر، وما زالت ابتهالاته تصاحب غروب شمس رمضان، وما زالت مقدماته الدرامية تذكّر الأجيال بالقيم التي لا تموت. في كل كلمة كتبها ظلّ أثر صوفي خفي، أثر العاشق الذي لا يرى الكلمة إلا وسيلة للفناء في المعنى الأسمى.

إن عبد الفتاح مصطفى هو الدليل على أن المبدع الحق لا يموت. يموت صوته الجسدي، لكن صوته الشعري يبقى حاضرًا في كل زمان. من يستمع إلى "أمجاد يا عرب" أو "صدق وعده" أو "مولاي إني ببابك"، يدرك أن هذا الشاعر قد تلاشى في كلماته، وترك لنا أثرًا من روحه باقٍ إلى الأبد.

وهكذا، فإن عبد الفتاح مصطفى لم يكن شاعر عصره وحده، بل شاعر الأبدية، الذي علّمنا أن الكلمة يمكن أن تكون صلاة، وأن الشعر يمكن أن يكون جسرًا إلى الله.

محيي الدين إبراهيم

القاهرة 30 سبتمبر 2025



الشاعر عبد الفتاح مصطفى



Mohy El-Din Ibrahim

An Egyptian writer, journalist, and critic, Mohy El-Din Ibrahim graduated from the Faculty of Engineering, Cairo University, before devoting himself fully to literature and the arts. Since 1989 he has written for the Egyptian stage, specializing in musical drama and political theatre, with acclaimed works such as *El-Nagda Ya Hoh* and *Aalam Kora*.

After studying journalism and media in the United States (Pittsburgh, Pennsylvania), he combined critical insight with creative vision, producing documentaries for Nile TV on the legendary actor El-Sayed Bedeir, and for Al Jazeera on the iconic comedy troupe *Tholathy Adwa' El-Masrah*.

He is the recipient of the **Arab Theatre Award in Playwriting (1989)** and the **Third International Prize for Political Song (1996)**. His writings blend philosophy with Sufism, affirming that mystery is never the end of knowledge, but its true beginning.